عرض كتاب

النظام العالمي: تأملات في شخصية الامم ومسار التاريخ(*)

تأليف: هنري كيسنجر
عرض: هيلاري كلنتون(**)

عرض: سميرة ابراهيم عبد الرحمن(***)

أينما توجه الأميركان بانظارهم، فانهم يرون أزمة تتلو أخرى . فهذا العدوان الروسي في اوكرانيا، وذاك التطرف والفوضى في العراق وسورية، ووباء مهلك في غرب افريقيا، وتلك التوترات الإقليمية المتصاعدة في بحري الصين الشرقي والجنوبي، واقتصاد عالمي ما أنفك لا يوافر نمواً كافياً أو ازدهاراً مشتركاً — نظام دولي ليبرالي عكفت الولايات المتحدة على مدار اجيال على بنائه والدفاع عنه، يبدو انه يتعرض لضغط في كل اصقاع العالم. فلا غرابة ان يعبر الكثير من الأميركان عن حيرتهم بل وحتى خوفهم من دورنا ومستقبلنا في العالم.

في كتابه الجديد الموسوم "النظام العالمي" يشرح هنري كيسنجر المنظور التاريخي لهذا التحدي. ورغم بعض الاختلافات حول سياسات بعينها، يتوأم تحليله كثيراً مع الإستراتيجية الكبيرة في سعي إدارة اوباما على مدار السنوات الستة الماضية لبناء هندسة أمن وتعاون عالمية للقرن الحادي والعشرين.

وخلال الحرب الباردة، برهن، بالنهاية، التزام الحزبين في أميركا على حماية مجموعة من الأمم وتوسيعها، هدفها تحقيق الحرية واقتصاد السوق والتعاون على انه ناجح لنا وللعالم . يبدو تلخيص كيسنجر لهذه الرؤية في محلها اليوم وذات صلة بالموضوع : توسع لا ينفك لنظام تعاون

---

*العرض نشرته صحيفة الواشنطن بوست على موقعها على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) في ٤ ايلول/سبتمبر ٢٠١٤.

– صدر الكتاب في التاسع من ايلول/سبتمبر ٢٠١٤ عن دار نشر "بينجوين برس".

** وزيرة الخارجية الأميركية السابعة والستون.

*** مترجمة في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية.

بين الدول تتقيد بقواعد واعراف مشتركة، وتتبنى أنظمة اقتصادية ليبرالية، وتنكر رافضة احتلال الاراضي، وتحترم السيادة الوطنية، وتنتهج أنظمة حكم ديمقراطية وذات مشاركة سياسية.

ساعدنا هذا النظام الذي رسخت دعائمه القوة العسكرية والدبلوماسية الأميركية وتحالفاتنا مع دول تشاطرنا الرؤى والافكار على دحر الفاشية والشيوعية، وحقق المكاسب والمنافع لنا ولمليارات من الآخرين. مع ذلك، لا يعرف الكثيرون حول العالم اليوم لا سيما ملايين الشباب قصص النجاح هذه. لذا، تصبح مسؤوليتنا استعراض ماهية القيادة الأميركية والحديث عنها.

وهذا يكون امراً مهماً لا سيما في وقت يتسأل فيه الكثيرون مثلما يقول كيسنجر "هل نحن في مرحلة تحدد المستقبل فيه القوى المنفلتة من عقال أي نظام"

بالنسبة لي، السؤال يكون مؤلوفاً. فحينما توليت مهامي في وزارة الخارجية الأميركية في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، كان الكل يعرف انه وقت تغييرات محيرة، ولكن لم يكن ثمة اجماع على ماذا كانت ترمي كل هذه التغييرات. فهل كانت الأزمة الاقتصادية ستأتي بانماط جديدة من التعاون أو انها تعني عودة الى الحمائية وعدم الاتفاق؟ وهل ستساعد التكنولوجيات الجديدة المواطنين على محاسبة زعمائهم أم تساعد الديكتاتوريين على مراقبة المعارضين؟ وهل ستصبح القوى الصاعدة مثل الصين والهند والبرازيل هي من تجد الحلول لمشاكل العالم أم ستصبح مفسدة له؟ وهل سيعرف التأثير المتنامي للاعبين غير الحكوميين من خلال تهديد الشبكات الارهابية والاتحادات الإجرامية أم من خلال مساهمة منظمات المجتمع المدني الشجاعة؟ وهل سيولد تنامي الاعتماد العالمي المتبادل (التوافق العالمي) شعوراً جديداً من التضامن أم سيطرح مصادر جديدة للصراع؟

كان الرئيس اوباما قد شرح التحدي الذي نواجه في محاضرة ألقاها بمناسبة تسلمه جائزة نوبل للسلام في كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٩. فقال بعد الحرب العالمية الثانية " قادت أميركا العالم في بناء هندسة تحفظ السلام .... مع ذلك، وبعد مضي عقد من القرن الجديد، تترنح هذه الهندسة تحت وطأة تهديدات جديدة."

كنت أشعر بالفخر لمساعدتي الرئيس في البدء لإعادة رسم النظام العالمي وترسيخ دعائمه ليفي بمتطلبات عصر يكون الاعتماد والاتكال فيه متبادل. في ولاية الرئيس اوباما الأولى،

أرسينا القواعد والأُسس، بدءً من إعادة إصلاح التحالفات الى تحديث المؤسسات الدولية وصولاً الى إتخاذ فعل حاسم بشأن التحديات التي تواجه العالم مثل البرنامج النووي الايراني والتهديد الذي يشكله أسامة بن لادن.

في حين تسلط أزمات الولاية الثانية للرئيس اوباما الضوء على ان هذا المشروع يستغرق من الوقت أجيالاً وسيتطلب التزاماً من الولايات المتحدة وشركائها في بحر السنين القادمة. ويكتب كيسنجر بان السياسة الخارجية ليست "قصة ذات بداية ونهاية "، ولكنها "صيرورة إدارة تحديات، لا تلبث تتكرر، ومعالجتها ." يستحضر هذا ملاحظة جون اف .كيندي بان السلام والتقدم "لا يقومان على ثورة مفاجئة في الطبيعة الانسانية بل على تطور تدريجي في المؤسسات الانسانية .....صيرورة . هي نهج لحل المشاكل."

ان أميركا، في أفضل أحوالها، هي أمة تجد الحلول للمشاكل . وسيقرر التزامها المستمر بتجديد النظام العالمي والدفاع عنه اذا ما نبني مستقبل سلام وتقدم ورفاهية حيث للن اس فيه الفرصة للعيش وفق ما اراده الله.

ان جل كتاب كيسنجر "النظام العالمي" مخصص لسبر أغوار هذه التحديات . فامتياز كيسنجر في ربطه المنفرد بين السعة في آفق التفكير وحدتها على وفق براعته في الربط بين العناوين الرئيسة وخطوط النزعات ...كل خطوط النزعات الطويلة في هذه الحالة. فهو يبحر من سلام ويستفاليا الى منصة التحليل المجهري، ومن صن تزو[1] (SUN TZU) الى تاليران[2]، والى توتير.

---

[1] ولد صن تزو أو سون وو في العام ٥٥١ قبل الميلاد، وعاش حتى العام ٤٩٦ قبل الميلاد، جاء من منطقة تدعى كي (Qi) حالياً شاندونغ في الصين، وذاع صيته بسبب عبقريته العسكرية التي اشتهر بها . كتب مجموعة من المقالات العسكرية الإستراتيجية، حملت اسم ((كتاب فن الحرب)).

عُدّ هذا الكتاب من أهم الكتب التي تتناول الحرب والإستراتيجية والتكتيك في ز مانه، وكان له تأثير كبير في التخطيط العسكري وأبعد من ذلك، ويقال أنه أثّر في نابليون بونابرت، والأركان الإلمانية، وماو تسي تونغ، وماك آرثر، وجياب وحتى (عاصفة الصحراء). وكان له تأثير كبير حتى في عالم الأعمال واستراتيجيات إدارة الشركات والمؤسسات الكبرى خلال ا لقرن العشرين . (المترجمة نقلاً عن عدة مواقع على الانترنت)

[2] شارل موريس تاليران، سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي ولد في ٢ شباط/ فبراير ١٧٥٤. كان يعمل برتبة عليا في نظام لويس السادس عشر، عمل كذلك خلال الثورة الفرنسية وبعد ذلك تحت حكم نابليون الأول، لويس الثامن عشر، وشارل العاشر، و لويس فيليب . عرف منذ مطلع القرن ١٩ ببساطة تحت اسم تاليران، وما زالت هذه الشخصية تستقطب اهتمام المؤرخين وتثير الجدل في اوساطهم. البعض عده أحد الدبلوماسيين الأكثر كفاءة ومهارة، ومؤثراً في التاريخ الأوروبي، والبعض يعتقد في المقابل بان ه كان خائناً للنظام القديم، وللثورة

ويتتبع اثر وجهة النظر الهندية عن النظام بالرجوع إلى الأساطير الهندوسية، ووجهة نظر المسلم وغزوات (النبي) محمد ((ص))، ووجهة النظر الأوروبية ومذابح حرب الثلاثين عاماً .(وهذا التتبع يستنبط مقارنة مع الشرق الأوسط اليوم)، ووجهة النظر الروسية و"مدرسة السهوب القاسية حيث تنافست مجموعة من البدو الرُحل على موارد ارضٍ تتسم بحدود ثابتة قليلة ." يمكن ان تساعدنا هذه النظرة الطويلة على فهم وادراك قضايا بدءً من عدو ان بوتين الى استراتيجية التفاوض مع ايران، ولكنها تثير سؤالاً عصياً على الإجابة عن " كيفية صياغة الخبرات والقيم التاريخية المتباينة في نظام مشتركٍ."

وحين نضع تحديات اليوم في الحسبان، تكون تحليلات كيسنجر عن آسيا – الباسفيك والشرق الأوسط ذات قيمة بوجه خاص.

بالتطرق الى الحديث عن آسيا، يلاحظ كيسنجر ان كل القوى الصاعدة في المنطقة، ومنها الصين، لديها رؤاها وتصوراتها الخاصة بها عن النظام الاقليمي والعالمي يُرسمها تاريخ كل منها والاوضاع الحالية. ان كيفية تعاطينا مع هذه الرؤى المتباينة . بناء علاقة تعاون مع الصين في وقتٍ نحافظ فيه على علاقاتنا الاخرى ومصالحنا وقيمنا في منطقة مستقرة ومزدهرة . سوف تقرر اذا ما كان بامكاننا ان نواجه التحدي العالمي الأوسع.

في كتابي "خيارات صعبة"[1] والذي وصفت فيه إستراتيجية الرئيس اوباما، تطرقت الى تطوير العلاقة مع منطقة الباسيفيك . آسيا، م ركزة على تعزيز تحالفاتنا التقليدية وتشذيب الخلافات الأولية البسيطة للمنظمات الإقليمية ومناغمتها مثل منظمة آسيان (اتحاد دول جنوب

الفرنسية، ولنابليون . وهو أيضا يعد سيئ السمعة لانه ادار ظهره للكنيسة الكاثوليكية بعد التنسيق مع الكهنوت، وبسبب تكريس حكومة الأساقفة. عرف بدهائه وحنكته السياسية. (المترجمة نقلاً عن موقع الموسوعة الحرة وموقع الموسوعة العربيةِ على الانترنت)

[1] الخيارات الصعبة (**Hard Choices**) هو أسم كتاب مذكرات لوزيرة الخارجية الأميركية السابقة هيلاري كلينتون، نشر في عام ٢٠١٤، وتغطي مدة إداراتها لوزارة الخارجية الأميركية من عام ٢٠٠٩ حتى ٢٠١٣.

تناول الكتاب الذي يقع في ٦٣٢ صفحة، وموزعة على ٦ أقسام، تجربة الأعوام الأربع التي أمضتها في منصب وزيرة الخارجية، ذكرت فيه الكثير من القضايا الداخلية والخارجية، ولكنها لم تكشف أسراراً أو تكتب آراءً قد تخلق عداوات مع سياسي أو دولة إذا وصلت للرئاسة.جاءت فيه على تعاونها مع باراك أوباما على الانسحاب من حربين، وإصلا ح التحالف الذي تعرض للتصدع أثناء مدة رئاسة بوش، إلى جانب التعامل مع التهديدات القادمة من إيران وكوريا الشمالية، والثورات التي اجتاحت الشرق الأوسط. (المترجمة نقلاً عن http://ar.wikipedia.org/wik(

شرق آسيا) وآبيك (منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والباسيفيك)، وإشراك الصين إشراكاً أوسع على الصعيدين الثنائي من خلال قنوات جد يدة مثل الحوار الاستراتيجي والاقتصادي ومتعدد الجوانب، في مواضع حيث الضغط الاقليمي قد يشجع على مزيدٍ من السلوك البناء واتخاذ قرارات مشتركة حول قضايا بدءً من حرية الملاحة الى التغير المناخي والى التجارة والى حقوق الانسان. يقوم محورنا في الارتكاز الآسيوي[1] (Pivot To Asia)، مثلما بات يُعرف بمجمله، على تشييد نظام قائم على القواعد في المنطقة التي يمكن فيها إدارة الصعود السلمي لقوى جديدة ودعم القيم والاعراف العالمية.

ان هذا النوع من الدبلوماسية المنهجية متعددة الجوانب غالباً ما تؤتي أُكُلها سريعاً ولكنها مثبطة للهمة ونادراً ما تتصدر عناوين الاخبار في أميركا، إلاّ ان بإمكانها ان تعود بالنفع الذي يؤثر في حياة الملايين من الناس . ودونما نظام اقليمي فاعل، ستكون التحديات مركبة . وخير دليل على ذلك ما يحدث في الشرق الأوسط . إذ يلاحظ كيسنجر بان "تحدي النظام العالمي يكون هنا أكثر تعقيداً . فيما يخص كل من تنظيم النظام الاقليمي وضمان انسجام ذلك النظام مع السلام والاستقرار في بقية العالم."

وكيسنجر صديق، اعتمدت على مشورته حينما شغلت منصب وزيرة للخارجية . كان يتابعني بانتظام، ويشاطرني ملاحظات ثاقبة بشأن الزعماء الأجانب، ويرسل لي تقارير مكتوبة كان يدونها عن زياراته. وعلى الرغم من اننا غالباً ما كنا نرى العالم بطريقة مختلفة، ونتبنى كذلك ردود أفعال مختلفة الآن وفي الماضي، فان ما يبدو واضحاً في كتابه الجديد قناعة مفادها باننا والرئيس اوباما نتشاطر : إيماناً بالا غنى عن استمرار القيادة الأمير كية في خدمة نظام عادل وليبرالي.

---

[1] تؤكد الإستراتيجية الجديدة والموسومة بـ" المحور الآسيوي (**pivot to Asia**) " والتي أعلن عنها البنتاغون في بداية عام ٢٠١٢ على وضع خطط وآليات جديدة في التعامل العسكري مع الدول الآسيوية وتحميلهم المسؤولية المشتركة في العمليات التدريبية أو العسكرية . وتصبح وفقها منطقة شرق آ سيا المنطقة ذات الأولوية الأولى للسياسة الأميركية عالمياً، لا سيما وهي تشهد صعوداً غير مسبوق للصين، وتوسعها في منطقة بحر جنوب الصين، بما يهدد التوازن الاستراتيجي في المنطقة مع دول مثل اليابان وأستراليا . (المترجمة نقلاً عن http://www.hamoudi.org/dialogue-of-intellenct/22/10.htm و http://www.noonpost.net/content/2628#.VVGTsn7CrGI.mailto

حقيقة ليس هنالك بديل فاعل . إذ ليس ثمة بلد اخر يمكن يجمع معاً التحالفات الضرورية والقدرات المطلوبة لتقف بوجه التهديدات العالمية المعقدة في يومنا هذا . ولكن هذه القيادة ليست حكراً على أحد، فهي مسؤولية يحتم على كل جيل ان يأخذها على عاتقه بعزم وتواضع.

ولحسن الحظ، توضع الولايات المتحدة في مكانة على نحو فريد من نوعه لقيادة القرن الحادي والعشرين. ومرد الامر لا يعزى الى القوة الثابتة لقدرتنا العسكرية او مرونة اقتصادنا، على الرغم من ان كليهما لا ريب ضروري. إلا ان الامر أعمق من ذلك. إذ تمنحنا الامور التي تجعلنا نحن كأمة ـ مجتمعنا المتنوع والمنفتح وتفانينا من اجل حقوق الانسان والقيم والديمقراطية ـ ميزة فريدة من نوعها لبناء مستقبل تسوده قوى الحرية والتعاون وتكون له اليد الطولى لا قوى الانقسام والديكتاتورية والدمار.

هذه ليست مثالية فحسب . إذ يجادل كيسنجر انه من اجل ان يقوم النظام الدولي ويدوم فانه يتحتم جمع "القوة الى المشروعية ". ولأجل هذا المبتغى يبدو كيسنجر، الواقعي الشهير، مثالياً على نحو يثير الدهشة والاستغراب [1]. وراح كيسنجر في كتابه يذكرنا انه حينما تكون ثمة توترات بين قيمنا والاهداف الأخرى، تنجح أميركا من خلال مناصرة قيمنا وتأييدها لا التنصل عنها، وتتولى القيادة من خلال إشراك الشعوب والمجتمعات وليس الحكومات وحدها. فاذا ما ساعدتنا قوتنا على تأمين توازن القوة الذي يعزز النظام الدولي، فان قيمنا ومبادئنا تجعل من ذلك مقبولاً وجذاباً لدى الاخرين.

لذا، فان دوافعنا للقيادة ليست الإبقاء على جيشنا قوياً ودبلوماسيتنا ذكية بل بتأييدنا لحقوق الانسان ومناصرتها ودعم حقوق المرأة والفتيات ودورهن، وبارساء قواعد فضاءً يمهد لمجتمع مدني مزدهر وخلق ظروف لتنمية ذات قاعدة واسعة.

هذا هو المنطق الاستراتيجي الذي عكفت على تأكيده بوصفي وزيرة للخارجية : استخدام وسائل السياسة الخارجية كلها حتى تلك التي تُنبذ أحياناً بوصفها "ناعمة" ـ انا أسميها "القوة الذكية"، وما زلت أومن انها توافر برنامج عمل لقيادة أميركية دائمة في العقود ا لقادمة.

[1] المعروف عن هنري كيسنجر انه واقعي وهذا هو سبب دهشة وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون واستغرابها، (المترجمة)

علينا ان نتصرف وفق قوتنا . وفي عصرٍ يتم فيه تعريف الشرعية تصاعدياً (ابتداءً من القاعدة) بدلاً عن العكس، فان أميركا تكون في مكانة أفضل من منافسينا الأكثر سلطوية

ويقر كيسنجر بذلك على أحسن حال. إذ يدرك كيف ان العالم قد تغير تغيراً كبيراً منذ ان كان يشغل منصب وزير الخارجية، لا سيما انتشار القوة والتأثير المتنامي للقوى خارج إطار الحكومات القومية. وعليه، تتركز المشاكل الدولية وحلولها . الصالح منها والطالح . على المنظمات غير الحكومية والاعمال التجارية والافراد. وبالنتيجة، فان السياسة الخارجية كثيراً ما تكون حول الشعب أكثر مما هي حول الدول. ويلاحظ كيسنجر بان هذه التحولات تحتاج الى نظام أوسع وأعمق من ذلك الذي كان يفي بالغرض في الماضي . ويكتب "أي منظومة نظام عالمي، لكي تكون قابلة للتأييد، يتحتم ان تُقبل ليس فقط من قبل القادة بل ومن قبل المواطنين أيضاً"

يكون هذا صحيحاً في الخارج، كذلك هو في داخل أميركا . فبلدنا في أفضل احواله الآن، وان قيادتنا في العالم هي الأقوى حينما نكون موحدين وراء هدف مشترك ومهمة مشتركة، وندعم رفاهية مشتركة وعدالة اجتماعية في داخل أميركا . لا ريب في ان تأييد قيادة أميركا في العالم يعتمد على تجديد الحلم الأميركي لشعبنا كله

في الماضي، ركنا الى حالة الانعزال وانسحبنا الى الوراء، ولكننا دائماً أولينا الدعوة الى القيادة أهتماماً حينما كانت الأكثر الحاحاً.

والآن، حان الوقت لجولة أخرى من نقاشاتنا الكبرى عما تعنيه أميركا للعالم وما يعني العالم لأم يركا. يتحتم وجود حوار نزيه يجمعنا كُلنا حول تكاليف القيادة الأميركية العالمية وموجباتها، وما هو المطلوب لبقاء بلدنا أمناً وقوياً.

لدينا الكثير للحديث بشانه. أحياناً، سوف لن نتفق. ولكن هذا هو حال الديمقراطية. ان حواراً قومياً حقيقياً هو السبيل الوحيد الذي يج علنا نعيد تحقيق إجماع سياسي للضطلاع بمخاطر القرن الواحد والعشرين وما يبشر به . يفسر كتاب هنري كيسنجر "النظام العالمي" لماذا علينا ان نفعل ذلك وكيف يمكن ان ننجح.